قصص قصيرة

الباب الموارب

طه سنجر

تقديم

حسن الجوخ

٢٠١٨ م

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة: الأولى

الكتاب: الباب الموارب

المؤلف: طه سنجر

تصنيف الكتاب: قصص

التصميم والإخراج: م/ محمد سالم

المقاس: ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع : ٢١٩٢ / ٢٠١٩

الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 641 - 8

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إليهما...

الذي دفعني للأمام بقوة...

والتي جذبتني للخلف بشدة...

لعلها تفيق

ولعله يرضى!.

طه سنجر

تقديم
حسن الجوخ

ما أجمل أن يرى الإنسان إنسانًا، يبدع أدبًا جادًا، يحاول جاهدًا أن يقدّم قدرًا من ملامح واقعنا المعيش، في بعض تجلياته، بعد معايشته لهذا الواقع وملاحظة تقلباته، وقراءة معطياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية والحضارية؛ فالمبدع الحقيقي هو ابن واقعه، والمتمرد على سلبياته في الوقت ذاته، هذا هو دور المبدع الواعي وصلب رسالته الأدبية في حياتنا.

وهذا أمر يثلج الصدر ويسعد النفس، خاصة في هذة الفترة الصعبة في حياة مصر بوجه خاص، وحياة أمتنا العربية بوجه عام؛ فقد سيطر تيار المادية المقيتة على النفوس وعلا صوته النشاز، من ثم ذبلت القيم المعنوية الجميلة، وتوارى صوتها شيئًا فشيئًا، فملئت القلوب بالشحناء والبغضاء، وتراءى واقع الحياة للناس رديئًا سيئًا، من ثم فالإنسان الموهوب أدبيًا يجب أن نفتش عنه، ونعمل – كنقاد أدب – من أجل خلقه، نؤازره طالما توافرتْ لديه الموهبة والحس الفني الفاهم، ندفعه إلى الأمام ليجد على خارطة أدب وطنه موضعًا لقدمه، يعايش هموم وقضايا بلده، يقرأ ويبدع ما يمتع الناس ويفيدهم.

ولقد عرفت الكاتب القاص طه سنجر حريصًا على حضور ندوة يوم الاثنين بنادي القصّة العريق بالقاهرة – تلك الندوة التي ثقلتْ مواهب، من هم فرسان الساحة القصصية المصرية ماضيًا وحاضرًا – يتجشم طه سنجر المجيء من أحد مراكز القليوبية، يقرأ بعض قصصه في الندوة المفتوحة للقراءة الحرة، يسعد بتعليقات الحضور – منهم كُتَّاب معروفون – أشارت التعليقات النقدية إلى أصالة موهبته، وأثنتْ على قصصه ذات الأسلوب التلقائي الصادق، فيؤوب إلى قليوبيته، شاعرًا كأنه طائر يرفرف من السعادة وتحقيق ذاته الأدبية؛ فهو إنسان طموح، يتعلق بغر بعيد، يسعى مجتهدًا للوصول إليه.

إلا أن العوائق صادفته، والظروف المعاكسة تصدتْ له ووقفتْ أمام طموحه، فانقطع عن حضور ندوة الاثنين فترة، ربما طالتْ أكثر مما ينبغي، لكنه لم ينقطع عن القراءة وممارسة هوايته في كتابة قصص قصيرة، يجد فيها السلوة والملجأ والملاذ.

استطاع – أخيرًا – التغلب على ظروفه، فحرّك قلمه ونفخ من روحه فكانت الكتابة شعاعًا يسعى على ضوئه، واثقًا من نفسه، أخذ يكتب ويكتب، متسلحًا بموهبته، حتى صار لديه أكثر من أربعين قصةً قصيرةً.

وحينما أبدى لي القاص طه سنجر رغبته الملحة في إصدار كتاب، يضمَّ بين دفتيه قصصه – أو عددًا منها – يحمل عنوانًا عامًا" الباب الموارب"، قمنا – أنا وهو – باختيار عشرين قصّة قصيرة، توسمنا فيها الجودة، لتكونَ مادة كتابه القصصي "الباب الموارب"، ورتبناها بالشكل الذي أرتأيناه الأصوب والأفيد للقصص وللقراء، ونأمل أن نكون أصابنا الصواب.

قرأت العشرين قصة التي اخترناها قراءة متأنية، فوجدتُ تجاربها مرّتْ بنفس صاحبها، وحياةً عاشها وعايشها، هي نبع لعاطفة ملأها الأسى والضيق، بذلك اتسمتْ بصدق فني ملحوظ.

مَنْ يقرأ متفحصًا قصص "الباب الموارب" يجد القصص تتنوع رؤاها وتختلف مدارسها الفنية بين:

أ – المدرسة الواقعية في الأدب والفن: وتمثلها قصص: ولدي، النوافذ المغلقة، وظيفة، جني القطن، وثالثهم البوتاس، الجنرال، يعني لازم تحلف، وجبة عشاء ساخنة، والعشرة جنيه، حزمة قش.

ب – المدرسة الرومانسية: وتمثلها قصص: ورق التوت، العودة، تهاني، لحظة خسوف القمر، وفكرة.

هـ – المدرسة الرمزية: وتمثلها قصص: عصفور أحمر، رحيل، وسلمى تموت مرتين.

ح – المدرسة العبثية: وتمثلها قصّة الحذاء.

ض – وقصة ذات عالم كابوسي هي "ملاك أسود"

وقد تلاحظ لنا تماس فني بين هذة المدارس الفنية؛ فقد باتَ من المعروف إن صفاء النوع الأدبي ومدرسته الفنية، أمسى أمرًا غير مقطوع به في أدبيات النقد الحديث. خاصةً وسط هذا الاختلاط والتمازج والتداخل، الذي يزيد يومًا بعد يوم.

هذة قصص سيقبل عليها القارىء راضيًا، ويتقبلها مقتنعًا قانعًا، ستصبح قطعةً من نفسه، كما كانت قطعة من نفس كاتبها؛ لأنها مورد فيه الصدق والعذوبة والصفاء، فضلًا عن سهولة مفرداتها وتركيباتها اللغوية وسلاسة أسلوبها.

«الباب الموارب» باكورة إصدار أدبي للكاتب القاص طه سنجر، وإن كانت تأخرتْ، لكننا نأمل أن يواصل مشواره الأدبي من خلال إصدارات جادة، تتلقفها الأيدي وتحسَّ بها الأذواق؛ لتظلّ خالدة في صفحات الإبداع الأصيل.

ولدي

إصطكت الكلمات بشرفات آذانهم، لم يحرو جواباً، صرخا أرنبا صــدري تحت فســتاني الضيق، رنّت صرخة وليــدي بأذنيَّ، لملمت أشيائي وقمت:

– جيالك ياضنايا...

من فوق فراش المرض رنَت أمي بطرف العين لي وقالت :

– طب استني شوية لما الجو يهدا يا بنتي.

قطرات اللبن الساخن تلسع أديم الصدر، نهضتُ مصممة:

– صدري حن، محمد زمانه مات م الجوع...

خرجت يلفح وجهي شرد يوليو الحارق، مشيت خطوات وهممت بالتراجع كان المفروض استني شوية لما الجو يهدا...

فعلًا الحاجة كان عندها حق، محمد، لقد تركته من دهر، وصدري حــن، كان لابد أن أحضرلرؤية الحاجــة، لقد طلبتني والأعمار بيد الله، ماذا لو كنت أحضرتك معي يا محمد ؟!.

أووه، اللي حصل حصل والسلام ولألحق بضنايا،

أسرعت الخطا، وقع قدميَّ يصطدم بطبلة أذنيَّ في رتابة، بامتداد البصر، الطريق طويل وكئيب وموحش، إلا من أشــجار كافور عارية من ظلالها، تناثرتْ علي ضفتيه في انتباه وجمود.

مليــك الجن في صدري يزوم، خواطر مضطربة أطردها من صدري وأسرع الخطا.

صدري يتشنج تحت فستاني: جيالك هوا...!!!

تنشق الأرض عن سيجارتين انفرجت سحنتهما بابتسامة بلهاء وطوقاني بدخانهما

ملت عن الطريق حتي كدت أصدم شجر الكافور، وقد تجمدت كل حواسي، اشعر بأصابع خشنة تنغرس بذراعي،

– علي مهلك يا جميل ...!!

الكلمات تصطدم بأذنيَّ وتتكسر على شجر الكافور ببلاهة شديدة.

انزويــت بداخلــي، تقلصت كل عضلاتي بشــدة، حاولت انتزاع الذراع من المخالب المتشبثة، فشلتُ،

اســتجمعت بقاياي، أودعتها فمي، حاولت أن أصرخ، عاجلتني يد، كتمت أنفاسي، وشوشت بأذني:

– وبعدين... أزعل منك... خليكي حلوة، واسمعي الكلام،

قبــل أن أُدرك ما حدث واســتوعبه أحسســت بطــرف ألة حادة يلامس جنبي، لدهشتي أسلمت لهما مقودي.

انزاحت اليد من فوق الفم، خفّ توتري قليلاً، بدا لي الآخر طيبًا

ولكن متى كانت الذئاب كذلك...!

ها هو يكشــر عن أنيابه، يعبث بأزرار فســتاني، يكشــف عن صدري، مازالت الألة الحادة تلامس جنبي، أي حركة ولو يســيرة قد تغيبها بأحشائي؛

انحرفا بــي عن الطريق، غبنا تحت جذع كافــورة كبيرة، الألة الحــادة تبتعد عن جلدي، الذئب يعوي بداخلهما، ويقفز ناحيتي، يعبث بمشدة صدري.

أخمشــه بأظافري، يثور ويعوي ويلــوي ذراعي، يبطحني أرضاً ويجثم فوقي.

العرق النازف يبلل وجه الأرض، أتكور وألملم أعضائي وأنضم إلي ما تحت الجلد.

أصبح كتلة من شجر الكافور الأبله الواقف دون حراك. مش هتجبها البر.!

زام الذئب الواقف يرقب معركتي وينشد استسلامي، يركلني بقدمه ويجثو علي ركبتيه جواري، يشهر مديته ويفح كافعى:

– مش عاوزأأذيكي!

أعفره بتراب الأرض، يبتسم ويجفف عرقه بحد مديته

يداعب صدري العاري بحد المدية، يتمتم، ويزحف ناحيتي ألملم نفسي... ويزحف

عيناه بعيني ترتعشان... ترتجف، وتتوسل، مديته تترك يده، ترقب أصابعه الخشنة تعبث بالفستان وتداعب ساقيّ، تمتد إلى الفخذ الملتف علي الفخذ المنضم، النفس الحار يلفح وجهي، أشعر بتلاحق أنفاسه... يشعر باستسلام الفستان، يلمح رايتي البيضاء كادت تُرفع، ألم مديته بالأرض، أرفع رايتي البيضاء، يرفع عينيه ويبتسم، بأصابعه العشرة يفك أزرار قميصه، غابة من شعر كث تغطي صدره، يفك أزرار قميصه، صوت محمد يصرخ، يرن بأذنيّ،

كومضــة برق كانــت مديته تغيب بغابة صدره الســوداء... لا أدري كيف!!!

وجه محمد يتراءى لعينيّ بقمة شجر الكافور، يبتسم لعينيَّ،

يعوي الذئــب الآخر ويعاجلــني بطعنة، الدم الحــار لا يتدفق ليروي شجر الكافور الأبله الواقف دون حراك. يطالعني وجه محمد يصرخ، ويلوّح بيديه إليّ... ويغيب في الأفق بعيداً..

وثـــالثهـم البوتـــاس

مرة جاءت، كان فوق السـلم يدهن سـقف الحجـرة في أمان الله، قالت:

- تسلم إيدك يا أسطى!

والأسـطي لم تسـلم إيده، ارتعشت إيده والفرشـاة واهتز السلم تحته، نظرة من فوق السلم للصدر الضاحك زلزلت الأرض!

قعد يلم البوية وقعدت علي ساقيها أمامه ولم تهتم بمسح البوية عن قدميها وقالت:

- ولا يهمك، اللي اندلق يتلم!

* * *

من ضمن المرات كان يبدل ملابسه بالحمام، طرقت الباب بشدة، في عجلة ارتدى ملابس الشغل، خرج وجدها تفضحها عيناها وقالت:

- آسفه جاني مغص مفاجيء!

تركها تدخل وخرج لشـغله، وضع الأسود عالأبيض ومع ذلك لم

يصبح لون الجردل " الروز" المطلوب!

ركن البوية واستأذن:

– عندي صداع شوية ومش هاقدر أشتغل النهاردة!

* * *

اليوم المفروض يشـطب النجارة ويدهن الأبواب وإن شاء الله بكرة يمسح الشقة، يشطب شغله ويرحل!

يومان ويرتاح من وجع القلب ووجع الراس، يتحمل، لا أول مرة يقابل امرأة لزجة ولا آخر مرة!

يومان يشطب شغله، يأخذ حسابه ويرحل!

فتحت، ضحك له ذراعان بيضاوان، وحمالة لقميص علي كتف، «وسمانة» رجل بلون السقف!

قالت:

– اتأخرت ليه ياأسطى داأنا قلت إنك مش جاي!

مع إن الساعة تسعة تمام، كالعادة تسعة تمام دق الباب، وفتح له ذراعان بيضاوان وحمالة، وضحكت له سمانة الرجل!

غض الطرف وحس إن اليوم ده مش هيفوت، اسـتعاذ بالله ودخل

الحمام، بدل ملابسه أخذ فرشاته والجردل وراح يدهن الأبواب..، باقي باب غرفة النوم، والأسـطي دومًا يخشى غرف النوم وخصوصًا لما يكون فيها الفرش.

صحيح الفرش متكوّم في نصف الغرفة، وصحيح الدولاب مقفول، لكن من يـدري! وارب الباب، بدأ يدهن ظهـره، طرقت، دخلت، قعدت عالكراكيب وقالت:

– تسلم إيدك ياأسطى، وعنيك!

زغردت الكلمة لظهر الباب، وبدون ما يشيل عينه سمع نفسه:

– شكرًا!

دهن الظهر، حمد المولى عز وجل، وفتح الباب علي رجله، وقبل ما يبدأ في الوش قالت له:

– إستنى، عاملالك شاي!

دايمًا لما بتعمل شاي بتجيب كباية، ليه المرة دي جايبه اتنين!

شكله مش مرتاح للشاي ده، أوجس خيفة!؟؟

أعطته الكباية وأخذت أخري وقعدت عالكراكيب!

سـند ظهره لوش الباب وقرفص عالأرض يشـرب كباية الشـاي

وسيجارة .. قالت له:

– دهنت الشقة مرتين، مكنتش بالحلاوة دي، بصراحة تسلم إيدك!

أول مرة يشوف عينيها عن قرب، حلوة، وحلوة كمان!

انكمش بجلده تلعثم قال:

– وإيديكِ يا أفندم!

– هتخلص بكرة، ووضعت ساقًا علي أخرى، ولملمت نفسها تستر مابان، ما بان للكراكيب، أخذ نفسًا من سيجارته ورشفة شاي وبلع ريقه وقال:

– إن شاء الله!

اعتدلت، وأنزلت الساق من عالساق لينحسر الثوب عن الساقين وقالت:

– انت بتدخن كتير ياأسطى!

– أبدًا دا يادوب بكمل علبة في اليوم!

– انت متجوز يا أسطى ؟

– لأه..!

وقام يدهن وش الباب، قامت أخذت في رجليها الجردل، دخلت في البلكونة وقعدت.

* * *

آخر يوم ويرتاح من وجع القلب ووجع الراس، يشطب شغله، يأخذ حسابه ويرحل!

فتحت له، ضحك له روب مفتوح، وقميص فوق الركبة بيشف، ويصف الأشياء!

أرخى عينيه وصبّح!، وغلّقت الأبواب!

اليوم مسح الشقة ولازم تبرق، ولازم ميخليش ولا نقطة بوية في الأرض، ولازم الشغلانة تعدّي علي خير، وياخذ حسابه ويرحل!

كنس الشقة، وجردل ميه بيغلي فيها كيلو بوتاس، دلقه وهات يا مسح!

ودخل الغرفة التانية، عند الباب وقفت كباية الشاي وقالت له:

– تسلم إيدك، الأرض بتبرق، وهتدخل صاح:

– حاسبي يا فندم، دا بوتاس!

تراجعت، وتسلم إيدك!

وعنيه بالأرض:

– وايديكِ يا فندم!

ودخل عالصالة، دلق الجردل، بدأ التنظيف، لمح الروب مفتوح، وقميص فوق الركبة بيشف ويصف الأشياء جميعًا وبالألوان، ولمحها رايحه جايه، ومش طبيعية،

أوجس خيفة!

حوقل.. كلها ساعة ويرتاح من وجع القلب ووجع الراس ويرحل، فوق راسه كانت واقفة محمومة والروب مفتوح والأرض مليانة بوتاس

وقالت:

– تسلم إيدك يا أسطى!

– يا فندم...، لم يكمل...!

صرخة وآهه وصوت الروب عالأرض الزلقة بشدة يكمل ما لم يكمله الأسطى النقاش!

ورق التـــوت

وحدي بالغرفة وسيجارتي، تعصرني أطياف هواجس، تبلعني، تتقيأني، تلفظني ببطن الشـارع، أحدق في المارة، أحملق فيهم، تفقأ عيني نهايات الجورب من خلف، تترسـل نظرتها، تتوسل، تقفز فجأة إلى ورق التوت الناعس باطمئنان علي مقعد ينتظر الأوتوبيس! تنهـل، وتعل، وتجوب بورق التوت الآمن في سـربه، تستوسـن، تمحقها نظرة استهجان المقعد وتضام الأغصان!

ترتـد النظرة الجوعي، اللهثى، إلى صدر مكشـوف حتي التلعة وتنام!

تزعج نعسـتها صرخة سـائق تاكسـي وزعيق العجلات بوجه الأسفلت!

يترنح أنفي من ضوع العطر الفواح القادم في خيلاء، ينفلت الدخان الأسود يدعب خيشومي ويغلق رئتي.

يهبط بصري علي ورق التوت المنشـور خلـف زجاجات العرض يحمل كل الألوان اِلا خضراء الدمن!

أخضوضل عرقاً حين تجيء البائعة الهيفاء اللمياء تسألني طلبي، تتعثر فوق شفاهي الكلمات وتدفعني منكدرًا ببطن الشارع!

ترتد الأطياف إليّ.. وتمسك أُذني وتفضحني أمامي، أغمض عينيَّ خجلاً وحياءً من نفسي، أصطدم بخضراء الدمن! أعتذر فتبتسم! من ألفي عام تعرفني... مسلوباً من كل الأشياء أمشي معها، تخرج منديلًا ورقيًا، أمسح عرقي البارد، ترقص أغصاني الظمأى لحبة طل! يصهل داخلي الفرس المشكول،أنفش ريشي وأزهو، هاأنذا آخيرًا صياد!

تفتح باب الشقة، يصدمني الترف الواضح مشدوهًا تسحبني إلى الداخل، أغسل وجهي بالماء الفاتر، يأتيني الصوت رخيمًا: تعال! وأذوب بجلدي، رخواً أخرج، تحملني ساقاي بالكاد، رائحة العطر الضواع تنعشني وتوقظ داخلي الفرس المشكول فيصهل، غلالتها تفضح خجلي، تهتك أستار الأنثى، تلقي بياقتي المهترأة وتطوق عنقي، القد الأهيف يتثنى، استنهض خيلي ورجالي، فرسي المشكول يشب، يخذلني ويصهل! من فوق غلالتها تدعوني، أستنفر جيشي، تلتحف بجسدي، تتلوى تتلجلج أشرعتي وتتكسر بالشطآن! متمرسةً على ما يبدو، تمهلني بتؤدة، تتملق فرسي،

تتودد وتناغي، تتوسل، أستملحها واستحقر فرسي يخذلني! تتصبب عرقاً ويذوب الفارس من كبوة فرسه!

ماهرةً على مايبدو... لا نظرة استنكار، لا استهجان، لا شيء سوى البسمة، وعصير طازج ونكتة، أمسح شفتيَّ بظهر يديّ!

تبتسم غلالتها لعيني، الدم الحار يصعد رأسي،أزحف ناحية جبال النار، تنسحب بخفة ودلال... الدم يفور برأسي، تلتهم شفتيَّ، تستنفر كل جيوشي وتتحدى!

الفارس يلهب ظهر جواده، الفرس المشكول ينفك عقاله، يصهل، ينفلت من الفارس ويمرق بين الأغصان...!

تتوحد كل الأشياء، تتكسر ضبحة أنفاسي في رئتيها، الزمن الحارس عند الباب يفوت. أنهض مكدودًا، ألعن جيشي المنصور بسري!

تبتسم وتدعو جوادي ثانيةً، وتسد الطرق أمامي...

نهمة على ما يبدو...

تصهل خيلي، تضحك تحتي الأرض وتنزف ماء البئر! مسرعة تنهض! أُجرجر ذيلي ناحية الباب، نيران سيجارتي تلسع جلدي...

يصدمني ضوء الغرفة... تعمه عيني، ألعن فرسي وجيشي وورق التوت وكل نهايات الجورب ونمنمة الدانتيل ألقي سيجارتي بعيدا، وأنام...!

وظيفـــــة

أشعة الشمس تملأ الغرفة، يتململ في فراشه، تسقط فوق وجهه، يفـرك عينيه وينهض، ينظر في سـاعته، الثامنـة تمامًا، يتثاءب، ينزل من فوق سريره، يسحب فوطة رخيصة من فوق وسادته، يتجه إلى الحمّام، بتراخي وكسـل شديدين يفتح صنبور المياه لتندفع المياه ـ علي غير العادة ـ فوق جسـده العاري لتنفض عنه غبار الكسـل. يلف جسـده بفوطته التي استحال لونها إلي السواد، فما تكاد تبين من أي الألوان هي! يدخل حجرته، لاشـيء في الحجرة سوى وسادة بالية يطل القطن من أحشـائها ويخرج لسانه للناظر إليه، في الوجه المقابل للسـرير ترقد في خنوع سـجادة – قديمة – تباعدت خيوطها فترهلتْ وامتلأ وجهها بالثقوب والتشـققات لتستقر فوقها "قلة " مكسـورة الحلق ووابور غاز "وعدة شـاي " على أحد الجدران تبزغ في عناد رأس مسـمار كبير لتتعلق بها صورة باهتة لشـجرة عتيقة تاهـت ملامحها فوق مكتب متهالك، تزاحمـت على صفحته أكوام متناثـرة لجرائـد قديمة، على أحـد جانبي بـاب الغرفة تراكمت أكـوام ملابس مهترأة فوق المسـامير التي ملأت ظهره، تمتد يده إلى

بنطالــون وقميص يرتديهمــا في عجالة، يمر بردهــة ضيقة قبل أن يصل باب الشــقة، يفتحه لتصطدم عيناه بكراكيب الســطوح، يهبط الــدرج الخشــبي قفزًا... ها هــو الآن بلجة الشــارع، نفس الوجوه الشــاحبة والكآبة، والأبنية والماء الآسن، بآخر الشارع تقف عربة الكشــرى مكانها، يصل إليها، يلتهم طبقه في صمت، على الرصيف المقابل يبتــاع صحيفة اليوم، نفس اللون ونفــس الهم، تقلب عيناه الصفحات، يضع خطوطًا تحت العناوين بدأت رحلته اليومية، تكلم كثــيرًا حتى جف حلقه... مظروف أوراقــه يضج ويضجر... أمعاءه تصرخ جوعًا... قدماه تنبح من التعب، يشــعر بدوار، مستنداته ما زالت تحت إبطه، يلملم نفسه ويعود إلى حجرته آخر اليوم فتستقبله بمودة ورحمة أرضيتها التي تشع منها الرطوبة والعطن.

جنـــي القطـــن

وعمره اتناشـــر عام ركـــب معاها الخـــط، كان دايما يختار الخط جنب الخط، ويشيلها، مع أنه أصغر منها بسنتين!

ماهي بنت العم، وبينهم كان فيه رابطة دم.

كان الخولي يقول:

– أول خطين لبســيمة وحمدان، دول جدعـــان، خليهم– أيِّدَة – تشد الصف.

ومـــع أن القطن العام ده هاف، شـــرب المية وهـــاف وغطى دماغ الخولي، كان شايل لوز!

الخط بيملي القفة، تملي شوال قنطار!

ساعة الصبحية...

عِـــب القطن بتاعه بخط، عِب القطن بتاعها ييجي قنطار، ســـاعة تفوت يكون سابقين الجمّيعة بخطين وكل الأنفار...!

الصوت بيجي م الخلف:

- اربط المعزة

يضحك حمدان لبسيمة ويبص وراه، على راس الخط تاخد إيده ويدّاروا بشجر القطن!

والواد مع أنه صغير، ويادوب الشنب في وشه بدأ يخط، كانت إيده لهلوبة في جمع القطن، وعينه تضحك لبسيمة، تنزل عالصدر المفتوح يبان أبيض في عنيه من كل القطن المجموع في العب...!

إيديه تتمد، تضحك، الإيد تمتد، يختلط القطن داخل العب بإيديه والنهد!

صوت الجميعة يقرَّب، تبعد!

والخط بجانب الخط، يشّيلها، وتشيّله، وكام عب يتعبوا في شوال، تلاقيهم سبقوا الجميعة بخطين، والصوت يبعد، وأغاني الجميعة بتبعد، بين شطين الفحل وتحت شجر القطن الهايف ياخد إيدها، والساق المكشوفة تخلي عينين الواد تحتار!

مع أنه أصغر منها بسنتين، ويادوب في وشه بدأ الشنب يخط، الإيد تتمد، يختلط تراب الأرض بالساق، والإيد تمتد، والبنت تميل يقطف من وجناتها الورد، مع أنه أصغر منها والبنت أكبر منه بسنتين، يلمس شفايفها ويسيل م الفم الشهد!

وبعد العصر، حمدان وبسـيمة سبقوا الأنفار بست خطوط، وعب القطـن رافع جلابيتـه لحد الفخد، وبين شـطين الفحـل، وصوت الجميعة بيضيع في القطن، تاخد إيده وترتاح والعب كبير، ينشـلح الثوب عن الساقين،عن الفخدين، قطن أبيض محلوج!

والواد مع أنه صغير، الإيد تتمد!

القطن أبيض محلوج، وملهلب زي الصهد، الإيد تمتد!

وعب القطن يقاوم عب القطن، مع أنه ابن العم وفيه بينهم رابطة دم

أشعل عود الكبريت، إنفرط القطن!

اختلطت كل الألوان عالأرض!

في اليوم التالي لم تأت بسـيمة ولم يحضر حمدان ... بعد الشهر الرابع كان الدمع بعين حمدان لون الدم، وبسيمة طوتها الأرض.

العـــــودة

القدر... القــدر... ظلت الكلمة تتداعي علي خياله، تتوارد على خاطره، نغصت ليلته، أرقته، رفع يديه إلي السماء عساها أن ترحمه دون جدوي، نهض، الليل يلف الكون بردائه الأسود، بددت الظلمة نجوم خافتة تنبعث من الأفق اللانهائي.. وضوء القمر، خرج، قصد دارهــا، لم يــدر ماذا كان يخفيــه الليل له تحت ردائــه، كل الذي يدريه أنه قاصــد دار حبيبته، كان يعلم أيضًا إنها دار غريمه الذي اختطف منه هذه الحبيبة، الدار تحويها وجوم وصمت غريبين، لم يدر كيف رفــع يده ودقت أصابعه الباب، ولا كيف فُتح الباب، كل الــذي يدريه أن حبيبته ها هي تخرج إليه، كلام صامت وإشــارات مبهمة، قليل من الوقت وهما على هذه الحال، تدخل، تغيب قليلًا، تعود، يتأبطها، تحت جناح الليل يتسللان خارج المدينة، بخطوات شاحبة كالموت وجدا نفسيهما أمام جبل صغير، إنه يعرفهما تمامًا، كان مكان لقائهما الوحيد، مازالت الأيدي متشــابكة، تسحب يدها بخفة من بين أصابعه وتمسـح دمعة سالت، تعود الأصابع لتتعانق، ضــوء يغمرهما، يفزعان قليــلًا، يعود فيلفهمــا الهدوء..إنه القمر

يبارك حبهما بعد تخلصه من كدرة سحابة حجبتْ ضياه! يتسلقان الجبل، همس صامت، بنظرات شاردة وصلا قمة الجبل، كل شيء يبدو غريبًا من حولهما، حتي الهدوء الذي يشملهما يبدو شاحبًا بلون الموت، علي صخرة جلسا، لم يتكلما، كانا يهمسان، حتي في هذا المكان البعيد عن كل البشر يتهامسان!، علهما عرفا أن جمال الحب نظرة، روعته همسة،غاية سبيله كف تعانق كفاً، لحظات وهما جالسان، تتحرك نحوه تضمه إليها، ينظر في عينيها، نداء داخلي يلح عليه بأن يبتعد، يتراجع، تتشبث به!

يسقط علي شفتيها، تتملص منه... نظراته في عينيها تستقر، كل منهما يشتهي الآخر، لكنهما مضطربان، النداء بالعودة يلح بالرجوع، يلح، يلح، نداء الحب أقوي، يبقيان!

يضمها إليه، تتلاحق الأنفاس، قلبها يدق بعنف، صدره يخفق بشدة، مازالا مضطربين يبتعد عنها، تروح في شرود، بكل مشاعره الملتهبة يزحف ناحيتها، تتحرك نحوه، لم يستطيعا مقاومة الرغبة، يقتل الهدوء صوت رصاصه نحوها، يفزعان، صمت قاتل يطبق عليهما، ينهض، يستوضح الأمر تحاول أن تمنعه، الخوف والذعر ملكا كل أحاسيسها، أأحد كان يترقبهما ؟! رصاصة تقطع حبل التساؤلات، تستقر في رأسها، نازفة دماؤها تسقط صريعة،

يفزع، يندفع ناحيتها، رصاصة تمنعه من الوصول إليها، في أحشائه تستقر، يسقط فوق الأرض وأمتار تحول بينهما، يزحف نحوها، رصاصة تتبعه، تطيش، يلتفت خلفه، شبح إنسان يتواري، مازالت دماؤه تنزف، تختلط بدمائها، ما أن وصل اليها حتي فاضت روحه...

يفيقان من شرودهما فزعين، هلعين، يتفصدان عرقًا، يتحرك نحوها:

- ماذا بك فيما شردت؟

- لعله ما سرحت فيه!!

نظرا طويلًا في الأرض، ينهضان، نزلا من فوق الجبل، ماانِ وصلا السفح حتي افترقا، كلٌ في طريق.

تهـــانـــــــي

قابلها صدفةً...

عصفـورة صغيورة تاج رأســها دهب وحرير، يناغــي الريح... يلاعبه الريح يطير! وجه السنيورة القمورة بدر ليلة أربعتاشر!

خطّ الرحمن أعلاه شــطين، والعين بحريــن أمهر ربان في الدنيا فيها يتوه، والخد شق الرمان عليه وسنان، بيحلم وبيرسم غمازتين حلوين بيقولوا أحلي كلام! والأنف ثمرة نبق، والفم خاتم ســليمان بفصوص لولــي، منظوم حواليهــا ياقوت بيصحى النايم من ســابع نومة، يقول الله ويسأل طبع الحسن!

والجيــد كوز فضة، فوق الصدر الجني علي خصر يضيق، ويضيق لحــد الفجر، صوابعها البضة ســبايك فضة فوق الكفين أجمل من أن ترسمها ريشة فنان، أكبر من وصف لسان.

دا قلامة ظفر الخنصر معجم بلدان!

عقد العزم إن العصفورة القمورة الســنيورة تكون له ســت الدار، وفي عقــب نهار كان بيــدق القلب، مع دق الباب، فتحوا له شــرب

القهوة، ارتعشت إيده لحظة مالعزف الأسطوري داعب طبلة ودنه!

اتغـير واتبدل حاله والعـرق البارد غطاه اسـتأذن قبل ما ينطق حرف!

* * *

أسـابيع بتمر وعمره مـازاره النـوم، ولازار النـوم له طرف، وخيالها زاده وزواده.

عقد العزم لتكون له ست الدار! دق الباب، فتحت له العصفورة، رقصت في عينيه ترابيزة السـفرة، وكراسي الطقم المدهب، والصورة فوق جدران الغرفة بترقص، والسـجاد بيرقص، رقص القلب داخل الصدر فوق الجيب المنفوخ بالمهر.

ولحظـة صمـت بدهر، تقطعهـا فناجين القهوة، والـد القمورة السنيورة

يقول:

- سلمي علي عمك ياتهاني، دا صديق وزمالة عمر!

ترتعش الغرفة، تنقلب كراسـي الطقم المدهب، ترتعش الصورة داخل الجدران، تنسحب الأرض وتُطوى تحته!

لون القهوة الغامق جدًا، القاتم فوق البدلة البيضاء ورابطة العنق يرسم شرطة رأسية ونقطة، وعلامة استفهام!

فكـــرة

قابلها ضُحًا... ضحى

عيناها كرمة ســحر، أسرّت لعينيه حديثًا سحرت عقله وتعجل وقت الصبح

وعند الضحوة ... قابل ضُحى، شــفتاها بحور الشــعر وشوشت لأذنه:

- صباح الخير

هاجت واضطربت، ما جت كل الأمواج بصدره، رد:

- صباح الفل

وتوالت ضحوات.

ضُحى... نظراتها تحلق به في السموات السبع

ضُحًا... همساتها تتدغدغ لها أحاسيسه.

ضُحــى... الجرأة التي تحطم الصمت وتكســر الحواجز، وتهزم التراجع.

ضُحًا... عشقت فيه هذا النوع الذي يعقل مشاعره ويروض أحاسيسه.

ضُحى... تعلم ما يريده، تعطيه إياه – طواعية – بغزارة .

ضُحًا... يعلم ما تريده، يعطيها إياه بحساب.

ضُحى... عشق فيها هذه الجرأة وذاك البوح! مازال علي مائدته ينتظرها، يلمح طيفها يمر أمامه فجأة ويقعد علي المائدة المجاورة يفيق، نعم هي، هي هي، ضُحى بشحمها ولحمها هي ضُحى!

تحجب عينيها الصافيتين الرائقتين نظارة داكنة، ينهض، يذهب إليها، يحتضن كفيها براحتيه، ينفلت الكف من الكف بخفة، تسري بأعماقه رجفة، يتراجع للخلف قليلاً، تخلع نظارتها، عيناها الرائقتان الرائعتان يكدر صفوهما غلالة دمع وبعض الحمرة،عيناه تستقر بعينيها.

– ضُحى، يقترب الوجه من الوجه، من العينين من الشفتين، من جبل الورد بخديها، ضُحى تتشبث بكلتا يديه!

– ضُحى مالك!؟

– ابدًا

- ضُحى مالك!؟

- جاني عريس!

قالتهـا وانفجر الدمع بعينيها، يرسـم مجرى علي سـطح الخد الناعم، يسّـاقط قطرًا بللوريًا فوق الصدر الشامخ يكتم سرًا، تفضحه الرعشة في أصداء الصوت.

- أهلي وافقوا! الكلمة ذبابة غجرية تطن بأذنه.

- يا نهار أسود، ترن، أهلي وافقوا، تطن

- تتجوز غيري لا يمكن!

الكلمة دبور مسـعور يقطع كل مسافات الرأس بالطول والعرض، ينفذ تحت الجلـد، ينخر في تلافيف العقـل، والكلمة ذبابة بألف جناح بيزن، ويرن أهلي وافقوا!

- تتجـوز غيري أبـدًا، والشـقة، والعفش بكام، والشـبكة والفستان وحذاء الفرح الأبيض وأبوه المزنوق في قيراط الطين، والكلمة دبور بألف جناح وجناح مسعور، أهلي وافقوا!

- دا يادوب مقدم شـقة، والعفش بكام والشـبكة والفسـتان وحذاء الفرح الأبيض، لا يمكن، والدبور مسعور يقطع رأسه بالطول

والطـول، ينفجر الـرأس من التفكير، يهتز الكرسـي تحته وتميد الأرض، يتلألأ ضوء السـقف بعينيه، أحمر، أصفر، أخضر يضرب وجـه الأرض بباطن قدمـه، أخضر ينفرج العقل عن فكرة، يمسـك يدها، ينهض

- إلي أين ؟

تستفسر، يجذبها ويخرج والفكرة ما زالت...

النوافذ المغلقة

على باب شـقتها المتواضعة، اسـتقبلته بابتسامة، صرخ وليدها الثاني، تركت يده ممدودة وجرت ناحية ضناها...

حين قابلها أول مرة... شـعر بعصفور صغير بزغب أخضر ينقر قلبـه في وداعة ورقـة، في لقائهما الثاني بدا عصفـوره أكبر حجماً وأكثر ضجيجاً،

في اليوم الثالث .... تمـرد عصفوره، نفض زغبه الأخضر، نبت جناحان من ثورة، رفرف، اصطكت شرفات القلب، زقزق، انخلعت نوافذه، شقشـق.... دخل شـهيق وخرج زفير .... انفرطت من بين الشفتين – أحبك – خجلى –

خجلى تبسمت في دلال وقالت:

– وبعدين معاك يا عماد... وغاب العقل!

* * *

في الأسبوع الثاني كان وجهها الصبيح يتلألأ تحت منديلها قمراً بغمازتين، يسبح في كل أطياف قوس قزح، وهي تقدم فناجين الشاي

علي استحياء وعيناه تأكلها أكل وأبوه يزغده في جنبه:

– الناس واخدين بالهم كفاية بحلقه!

* * *

مرت أسابيع كالحلم وهما عصفوران يتأرجحان بين السحاب، لم يكفا عن التحليق، فجأة قال:

– سأسافر أستنفر النوق الحمر وأجلب لكِ لبن العصفور...!

انتفض الريح بشدة، برق الرعد، انهمر الدمع وقالت:

– لاتفعل ... وتهاوت لسابع أرض

* * *

أول رسالة كانت ملتهبة، حروفها ملتهبة، كلماتها ملتهبة، ما بين السطور والسطور جمر من نار، قرأتها آلاف المرات، بين الكلمات لمحت خيالات لنوق حمر ولبن العصفور، حفظتها عن ظهر قلب، خبأتها بين مسام الجلد، وبدمع الشوق كان الرد:

– إني منتظرة!

* * *

بعد السلامات وإزيك، والأحضان والقبلات، وا... سلامات وبعد

عبير اللقيا ماراح، قالت جدته:

- قيراط حظ ولا فدان شطارة!

قال أبوه:

- نصها بالراحة ولا ملوها بالتعب!

في نهاية الأسبوع الثاني كان يحمل حقيبته الصغيرة، وكانت تحمل آلامها الكبار ودموعها، علي سلم الطائرة قالت:

- إني منتظرة

* * *

في خطابه الوحيد بعد شهور لم تلمح نوقًا حمرًا ولا شمّت لبن العصفور...

شمّت رائحة الزيت علي ورقة مكتوبة بعجالة، انقبض الصدر، تاهت عيناها وزاغت بين الكلمات.

* * *

عام بدهر عاشت، وعند اللقاء كان فاترًا، أفاقت في الأسبوع الثاني وجدته خارج البلاد، بكى الدمع بعينيها ونامت! عام كامل لم يصلها منه خطاب! في منتصف العام الثاني كانت تلبس فستان

العرس لآخر، بعد أحد عشر شهراً كانت تحمل بين يديها مولودها الأول، أربع سنوات مرتْ، سمع صرخة مولودها الثاني، أفاق من شروده علي يده المدودة،

استدار... نسمة هواء باردة تغلق الباب الموارب.

حزمة قش

في دار المناسبات بوسط القرية، كان اللقاء، بعوده النحيل، وشاربه الكث، وحبات من نمش تناثرت فوق وجهه المشرّب بالحمرة.

كان قميصه « الكاروه» من نفس نوع قميصي الرخيص برغم اختلاف لونيهما.

جاءت جلستي بجانبه، لا أدري هل هي المصادفة وحدها التي دبرت الجلسة، أم كانت من اختيار صاحبنا..

كنت متعبًا.. ألح والدي الشيخ أن أذهب للدار، فالمرشح سيزورنا الليلة، وأنت خير من يمثل أبناء القرية، من يدري فقد يفوز ؟!

ولا يصح أن تكون عائلتنا – الوحيدة – التي لم تستقبله، ثم إنك خير من يعرض مطالب القرية، وخير من يأخذ منه الوعد بتحقيق المطالب حال فوزه، فأنت المتعلم الوحيد، ولأنك.. ولأنك..

ولأنني كنت متعبًا ذهبتُ علي مضضْ! ! وجاءت جلستي بجانبه .

كان حذاؤه يجاور حذائي، فوق الشريط الرملي بين حصائر

البوص التي غطت دار المناسبات غير أن حذائي لامع ونظيف...!

* * *

فرغنا من فناجين القهوة، وقف أحد رجاله المفوهين يعدد مواهب الرجل، وصاحبنا يجلس بجواري يجفف حبات عرق بارد، اختلطت بحبات النمش فوق صفحة وجهه المشرب بالحمرة.

لما جلس الرجل المفوّه، وقفتُ، اشرأبت الأعناق في انتظار كلمتي، قبل أن أنطق بحرف جاءت الكلمات من مشايخ القرية:

– بالراحة يا أستاذ والنبي علينا..!

– قول يا أستاذ.. والنبي لتقول اللي في نفسك، وحياة الشيخ.

* * *

لما كنت متعبًا، ولأنني جئت على مضض، ولأن حياة الشيخ غالية عليَّ، ولا يصح أن أقول إلا ما في نفسي.. قلت:

– أقدم لكم عريس الليلة – المرشح المستقل – ليحدثنا عن برنامجه، وليتحدث هو، فكلام المرء محسوب عليه..!

وانحنيت وأخذت بيد صاحبنا.. فقام.

* * *

في الواحــدة صباحًا كان مع صاحبنا، وعد من مشــايخ القرية بأن أصوات القرية كلها في صندوقه، حينما كان يدس يده في يدي مودعًا، ضغط عليها في رجاء ولسان حاله يقول:

– خليك معانا وسترى..!

* * *

صبيحة يوم الانتخابات كان كل شــيخ في القرية يدفع أهله دفعًا لــلإدلاء بأصواتهم، كان كل طفــل في القرية يحمل "نظارة" – لعبة – رمز مرشحنا المستقل!

أمام صناديق الاقتراع كانت النظارة هي الرمز الوحيد الذي إلتهم أصوات قريتنا...!

ولم لا... ومعها وعد من مشايخ القرية،

ولم لا ... وقد وقف الرجل عشــية الانتخابات في دار المناســبات وصوته يجلجل:

– ســيكون في كل شــارع صندوق قمامة، حنفية مياة، ســيكون لكل عائلة جرار زراعي يحمل السماد البلدي اِلي الأرض مجانًا عوضًا عن الحمير، ســترصف كل حارات القرية، ســتدخل المجاري القرية، وسيكون في كل بيت تليفون..!

وبين السينات المتوالية، كانت عواصف التصفيق تلهب أكف الفلاحين الطيبين، وكانت صور ولافتات صاحبنا تزين غرف نوم الفلاحات بقميصه « الكاروه » الذي يشبه نوع قميصي الرخيص.. يومها اكتفيت بالسمع الجميل..!

* * *

ونجحت النظارة، لم تكلف خاطرها بالعودة إلى دار المناسبات لتشكر المشايخ الذين وقفوا بجانبها..!!

شهر فات، تبعه شهران، ثلاثة، لم تأت النظارة لرد الجميل، في الشهر الرابع، ضحكت كما لم أضحك في حياتي لمّا وجدت زوجنا المصون "تحمي" الفرن بصور صاحبنا، وتقول:

- أغنانا عن حزمة قش..!

يوم الجمعة، في الجامع الكبير، كانت تقف سيارة فارهة لم يتعود تراب القرية على رؤيتها..!

بعد صلاة الجمعة مباشرة، كان ميكروفون المسجد بين أصابع التفت حولها مسبحة غالية، تطل من "اِسورة» قميص أبيض بدبوس مذهب، وقبل أن أتبين الغريب، كان صوته يجلجل: - ياجماعة أنا عليَّ إلتزامات، وفيه أولويات، مش كل واحد عايز يشيل نقلة

" سـباخ " لغيطه يخبـط لي عالباب لم اسـتطع أن أجلس أكثر من هـذا فخرجت،خرج خلفي آخر رجل في المسـجد الكبير.. بينماكان الصوت يجلجل،وحبات النمش تزحف علي الوجه المشرّب بالحُمرة لتغطيه بالقتامة والسواد.

مـــلاك أســود

نبح كلــب، رد عليه كلاب آخرون بآخر الشــارع، نهق حمار، جاءه صوت والده الشيخ يرن بأذنه:

- الحمير تنهق عند رؤية شيطان!

اســتعاذ بالله الســميع العليم من الشيطان الرجيم، ودس نفسه في بطانيته، بين اليقظة والمنام...

رآهــا بعيني رأســه المفتوحتين تحــت ظلام بطانيتــه، مد يده يتحسسها، غابت تمامًا وتركته وحيدًا وسط ظلام الغرفة، نبح كلب ثانيَّة، يتســلل من تحت بطانيته، في ضوء الشارع الباهت يتحسس حجرًا، يلقمه الكلب الأسود، يُفزعه، الكلب يلتقم الحجر ويثبْ على كتفيه، عيناه تلتعمان وتقدح شــررًا يضيء الشــارع..! هلعًا مرعوبًا يتخلص من كلب الشــارع ويدخل حجرته وتحت بطانيته السميكة تطالعه عيناها، ضيقتان، تلتمعان، شــيطانان صغيران يجثمان علي صدره فتضيق أنفاســه وتنحبس الصرخــات بحلقه، ينهق الحمار، يعوي الكلب الأســود، يدوى صوت الشــيخ يــرن بأُذنه، يحاول أن يفتح فمه ليســتعذ بالله، يشــعر بكف عريضة، بطول بطانيته علي

شفتيه تكاد تكتم أنفاسه، تطالعه عيناها الضيقتان تلتمعان وتضي ظلام الغرفة، يد خفيفة تسحبه من تحت بطانيته وتقذف به وجه الأرض، يعتدل بجلسته بلا ألم، تطالعه عيناها، تجلس قبالته، تبتسم، عيناها الضيقتان تتسعان وتلتهم كل الأشياء بالغرفة إلا هو! تزحف نحوه، تتمسح به، يموت بجلده ويبول مكانه! نبح الكلب ثانيةً، تتركه وحيدًا، يخرج صوت أخيرًا، تختلط الأصوات، لهفة أمه، عراك قطة مع كلب ينبح، وصفعة قوية لوجه الحائط من باب الغرفه!

في الصباح وجدوا قطة سوداء تحت فراشه المبتل مضرجة بدمائها.!

لحظة خسوف القمر

علي باب غرفة النوم استقبلته بكامل زينتها، دارت دورة كاملة حول نفسها وقالت:

– أجنن مش كده!

رائحة العطر النفاذ المتناثر في أرجاء الشقة تستقر في أنفه، نظرته الحيرى المرتبكة تقتل حرارة البوح علي شفتيها، تخنق بدايات الحروف، وتسبى نهايات نداءات الجسد، تنزوي أمام مرآتها بشوق.. لم يتفلت بعد، صدى الصمت يستبيح الزمن وينتهك حرمة الأمكنة، ودت لو يتكلم، لم يفعل، جلس على الفراش وأشعل سيجارة، جذب نفسًا عميقًا، انفلتت الكلمات بغتة في الصمت المدوي:

– دعينا اليوم من زخرفة أصابع قدميك، ومن التلوين، دعينا إذا كانت «قَصة» فستانك تمشي مع تدويرة وجهك أو هندامك، دعينا من نوع العطر فالأمر خطير!

– أنا مسافر!

مازالت تبرد في ظفريها..!

– أنا مسافر!

ألقت مبردها الفضي، نظرت في المرآة وقالت:

بعثة ؟ سيكون الراتب كم؟!

–...! تسأل زوجته سيكون الراتب كم ؟!

مازالت تنظر في المرآة، تعبث في خصلات الشعر الفاحم كالأيام، مرت كلمة هجرة بأذنيها كأن لم تسمع شيئًا!

– قولي شيئًا...

– ستهاجر لبلاد الغرب، أعلم إنها تنتظرك ببلاد الغرب، مازالت ابنة عمك تهفو إليك! تعشقها لا تنكر!

– مازالت صورتها تحيا في عينيك، في رعشة أصداء الصوت بقلبك... مازالت تسري بكل عروق الدم لا تنكر!!

صمتت، عادت للمرآة، وكأنه يحدث نفسه:

– ثوري سيدتي، انزعجي أو فابتسمي، إلق المرآة بوجهي ودعيني أقول، يومًا لن أهرب منك إليها لأنك أجمل!

يومًا لم أهجر عشي كي أنظر في عينيها ولأنك أفضل!

ولأنك قدري المحتوم عليّ ! !

– ستكونين رفيقة سفري إن شئتِ، وإلا... فهذي أموالي بين يديك خذيها ودعي لي مصروف اليد ليوم أو يومين!

سأهاجر لبلاد لا أعرف فيها شيئًا، لم أعرف سيدتي لغة القوم هناك، ولا حتي نوع العملة!

لا أدري هل تشرق نفس الشمس المعروفة لدينا هناك... سأهاجر لأني مخنوق، معصوب العينان، ولأني لا أعرف كيف أسوس حمار القاضي، والأرض باتت لا يطربها صوت العصافير، والأشجار ما عادت تثمر إلا نفس الصنف ونفس الهم المكروه لدي، الأبار غطاها الدم، ومدينتنا باتت ترفل بثياب الرق، عصافير مدينتنا ماتت منتحرة لأن الريش مُخالف لما يهوى "جناب" القاضي، صعب أن أحيا بمدينة لا تعرف غير اللون الواحد، وتلبس نفس الزي الواحد، وهواء مدينتنا مملوء بالدخان، من يتجرأ ويبدل نوع شرابه يسحل بالميدان، أخشى أن تثأر مني جدران مدينتنا وتشي بي، "فالفرمان" العالي يقول:

– لتسجن كل نسمات الريح، ولتقلع كل الأشجار المختلفة.

يصمت فجأة، طرقات شديدة علي الباب، الطرقات تشتد،

يفتــح، نظارات ضبابية ســوداء وأحذية ثقيلة تمــلأ الصالة، تقوده إلي الخارج، زوجته تتعلق به، كعب بندقية يبعدها عنه تسقط فوق الأرض قابضة علي كُم قميصه، تنهض وتتشبث به!

كعــب بندقية يفجر بوجهــا الدم، ماتت أصابعهــا علي ياقة قميصه.

الجنـــرال

– كفاك ألغازًا ياعم سـحلول، حدجني بألف عين وعين، بنظرة ذات ألــف معنى، دق الأرض بعصاه التي يتوكأ عليها، ويهش بها، وله فيها مآرب أخرى وصاح:

– لن تفهمي كعادتك أبدًا...

همّ ليتركني، وهممت به، اسـتدار، طوح عصـاه في الهواء قبل أن تسـقط في الأرض، كانت تحتويها أصابعه، نظر إليَّ وضحك ...! آتية من المجهول، صدمـت قهقهته أذني، هرول بعيدًا، نظراتي تلاحقه وتلهث خلفه.

غريب هذا السحلول، مذ وعيت وأدركت الأشياء في هذه القرية، الـتي جئت إليهـا وأمي أدركت عم السـحلول، كنـت طفلة، عند شـدة نزَقي البريء وفورة شـقاوتي كانت أمي لاتملـك الإ أن تنطق باسم السـحلول فينزوي مارد طيشي داخلي، وكبرت قليلا، آثرني السحلول دون غيري من أطفال القرية بحلواه وحكاياته، لم أفهمها وإن ترسـبتْ داخلي لتتولد بيننا أُلفة من نوع خاص، لتنزاح جبال

الرهبة من صدري، تلونت وجنتاي وبرز صدري فما كان لينبغي لي أن أنعم بحكايات سحلولي، انزويت بداخلي أحاول ماستطعتُ فك رموزها، بقيتْ غامضة كصاحبها على مداركي استنجدتْ بأمي، نهرتني، ألححت، أتت الإجابة مقتضبة، انفلت عيار صدري، منعتني أمي من مقابلة الرجل الغريب، تمردت وقابلت السحلول الأعمش، بجلبابه ذي الألف رقعة، تعلوه – سترة – عسكرية تنوء برتب شتي لجيش بأكمله من أول شريطة بست وثلاثين فتلة، كل فتلة تحرق مديرية، حتي السيفين المتقاطعين..، كان يحلو له أن تناديه القرية بالجنرال، وكانت عصاه من عجائب السحلول السبع، أسفلها ذؤابة نحاسية تقابل وجه الأرض لتفلق الحجر، عليها أشرطة حمر، خضر، صفر، كل الألوان.

إذا اقتربتَ ودنتْ الأشرطة من ناظريك ألفيتَ عجبًا، هذا الشريط يحمل توقيع رئيس السكة الحديد للركوب مجانًا، وذاك... لرئيس الشرطة لعدم التعرض للسحلول.

وثالث، ورابع، وصباح الخير يارب مكتوبة فوق عصاة الجنرال!

لاحظ بعينيه العمشاوين تقربي منه وتوددي له، ظل ينظر في صمت إليَّ وفجأة قبّل جبهتي، انطلق كطيف غاب عن نواظري وتركني في حيرة من أمره.

أخيرًا وصلت الدار، ألفيت عجبًا، السحلول الذي تركته بأطراف القرية يقعد على عتبة دارنا.

مـبروك عم السـحلول، من أهل الخطوة، هكـذا سمعت من أهل القرية، الآن صدّقتُ وآمنتُ ـ البعض يقول:

– هارب من حكم

والآخر قال:

– مسـه الجن فهجر أهله وهام علي وجهه، لا هذا ولا ذاك أصدق، إنه مبروك من أهل الخطوة ... وها هو يقعد علي عتبة دارنا محتضنًا عصاه بقدميه، قابضًا عليها بيمينه، متوسـدًا صدغ الباب برأسـه، تقدمتُ نحوه... أحسَّ بي... بادرني:

– يا طالع الشجرة، هتلي معاك بقرة، تحـ...!

انفتح الباب فجأة، انزعج الجسـد فوق الأرض وملكته الرهبة، عاتبة، عنفتني أمي:

– إلى عتبة الدار يا جمالات، إلي عتبة الدار...!

لم أفهم، تحولتْ كلماتها لغزاً في مسامعي.

في هدوء انسحب الجنرال، ناديته:

- عم سحلول...

التفت ولم يجب، تعلقت به، طوح عصاه في الهواء، صنعت الأشرطة مظلة تحمل كل الألوان، تراخت الأصابع في استقبال العصا، سقط بجانبها على الأرض، علي ركبتيها ركعتْ أمي أمامه، هزته بعنف:

- السر أخذه صاحبه.

وسط ذهولي وأقدام الجموع لمحتُ ورقة منشورة بين شرائط الجنرال، تقع عيناي علي خاتم مكتب الصحة، ملخص من دفتر المواليد، بناحية... مركز... مديرية... رقم القيد بالدفتر... تاريخ الميلاد...

الأسم: جمالات

النوع: أنثى

أسم الوالد ولقبه:...

أسم الوالدة ولقبها:...

تتوقف عيناي وتتحجر، أمدُّ يدي إليها... قدم كبيرة تسبقني تغوص الورقة بوحل الشارع مع كل أشرطة عصا الجنرال!

يعني لازم تحلف

– والله لأنت داخل، هو أنت غريب، دا بيتك برضه!

– لازم تحلفي يعني وتحرجيني!

– ادخـــل ياراجـــل، هوّه واخد البيت معـــاه، ولا يعني واخد البيت معاه!

دخل يقدم ساقًا ويؤخر أخرى.

– لو مكنتش حلفت، القصد، أريح رجلي م المشوار!

مع تحرجه الواضح قعد علي أول كرسي قابله في الصالة، إلا إنها أخذت يده الي الصالون وقالت:

– ياخبر، ودي تيجي، علشان تقول معندناش صالون!

وبنفس القدر الهائل من الحرج الواضح في قســماته دخل الصالون يقدم ســاقًا ويؤخر أخرى، ما إن أستقر علي الكرسي المدهب بادرها بتململ:

– هوّه هيتأخر في الشغل!

– يادوب علي ماتشرب الشاي، يكون جه، حالاً أعمل لك الشاي!!

غض الطرف لما جاءت بالشاي، لاحظ أنها غيرت ملابسها بأخري أكثر بهجة وعللها لنفسه:

– يمكن عايزه توريني إنها ببحبوحة..،

تناول كوب الشـاي وعيناه بالأرض، وعند الرشـفة الأولي نطق الشيطان القابع في مفرقها:

– عصام قاللي إنك فركشت خطوبتك، دي كانت طيبة!

– كل شيء قسمة، بس لما أشوفه الفتّان!

– ولايهمك، البنات علي قفا مين يشيل، أوعى تكون زعلان!

– هو عصام دايمًا بيتأخر في الشغل كدة

– أبدًا، وأدينا بندردش لحد ما ييجي!

خرجت من موضوع دخلت في آخر، خرجت، دخلت، ألقتْ قنبلة موقوتة!

– مالك كدا كمشان، افرد ياراجل، واللا مكسوف مني!

– أبدًا، وهاانكسف ليه، هو عصام أتاخر ليه لحد دلوقت!

– الغايب حجته معاه!

ومالت تأخذ كوب الشـاي الفارغ، بان الصدر الرجراج ليعلن عن نفسه، ويتحدى!

خرجت، دخلت، قام ومدَّ كفه إليها وقال:

– أستاذن ... عصام إتاخر، أجيله وقت تاني!

احتضنت كفه بكفيها:

– والله لانت قاعد، عصام مش هيتاخر،

هبط الشـيطان من الرأس المكشـوف.. اسـتقر بكفيها شيطانان، أحسَّ بدفئهما، استسلم لهما!

– لازم تحلفي وتحرجيني!

وقعد علي الكرسـي المدهب، قعد قبالته علي كنبة الطقم المدهب شيطان كان بمفرقها.

عند الرشـفة الأولي لكوب الشاي، هبط شيطانان بكفيها، أحس بدفئهما واستسـلم لهما لما ابتسـمت، ضحكت " دسـتة " شياطين وقفت فوق الجسد القاعد فوق الكنبة أمامه وأشاروا اليه:

– تعال!

أحسَّ بسـطوه، وأحسَّ بغصة، وأحسَّ بأن الأرض تدور، وأحسَّ بأن الشياطين أجتمعوا إليه، وبأن الواجب كان ألا يدخل م الاصل!

قام وقال:

– أستأذن، انفلت إلى الباب وأردف:

والله عندي ميعاد!

– يعني لازم تحلف!!

لمـا خرج إلى الشـارع كانت كل الشـياطين المجتمعة تمط شـفاه مشقوقة وتمصمصها وتضرب كفًا بأكُف أخرى...!

العشرة جنيه

بينما كان يعبث في أشيائه وكتبه وجد بين صفحات كتاب ورقة مالية فئة " العشـرة جنيه " ولما كان مـن أولئك الذين لا يحتفظون بنقودهم بين طيات الكتب ـــ لا لفلسفة خاصة ـــ ولكن لقلة الموجود من الأصـل، اضف إلى ذلك أنه من ذلك النـوع المؤمن بالمثل القائل " اصـرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب "! دُهش كثيرًا وتعجب من أمر العشرة جنية مجهولة النسب هذة، وأخيرًا قال لنفسه:

– قد يكون ما في الغيب قد أتى في كتاب... لنتوكل على الله ونصرفها ولننظر في كتاب آخر بعد ذلك عسـاه أن يتحفنا بمائة جنيه كاملة، وتهلل بشرًا..وقام لتوه ليصرفها، وكانت المشكلة، ماذا يشتري ؟!

– خبزًا؟

– موجود ولايجد من يأكله.!

– شايًا وسكرًا ؟

– الأمس فقط زوجته أحضرت التموين، لا شايًا وسكرًا فحسب ولكن دقيقًا وأرزًا وزيتًا... حتى الفلفل الأسود أعطاها – البقال التعاوني –

إياه... ويجعله عامر!

فكر قليلًا وقال لنفسه:

– نعطيها لزوجتنا « تفك « أزمتها الرمضانية «!

تدارك الأمر سريعًا:

– ماهـي واخـده مصروف الشـهر بطوله، كلها يومـان وتاخد المصروف الجديد!

ثم أيه أزمتها الرمضانية دي ؟

دا حتى رمضان خيره كتير، وبقدرة قادر رمضان كريم!

ثم ما أدراني لو أعطيتها العشـرة جنيه أسـلم من القيل والقال، فكل مليم في جيبي عرفاه، وحافضاه، فمصروف اليد الذي تتركه لي يكفي بالكاد كوب الشـاي اليومي، والمواصـلات لا أدفع فيها مليمًا والبركة للمصلحة.

– أوه،... ما لي أنا وهذة العشـرة المنكودة التي أتت في غير زمانها لتعكر عليَّ صفو ليلتي!

وغُلب حماره، أخيرًا قال:

– تاهت ولقيناها، نشـتري علبة سـجائر، مرة نشتريها كاملة من

نفسنا! وارتاح لهذا الخاطر، على أطراف أصابعه حتى لا تشعر به زوجته وضيوفها المدعوون لحفل الكعك السنوي، خرج ليشتري علبة سجائر! وعاد إلى مكتبه حذرًا كما خرج، على مكتبه المتهالك قعد وأخرج " مقصًا " وشرع في فتح العلبة، حرص أن تكون الفتحة مثلثة، ولا يدري ما الحكمة في أن تكون مثلثة إلا أنه رأى علبة سجائر رئيسه في المصلحة هكذا، وبسبابته دق على منتصف العلبة كما يفعل رئيسه تمامًا، سبحان الله، خرجت سيجارة وحيدة فقط من الفتحه المثلثة لتلتقمها شفتاه! وضع ساقًا على أخرى، أشعل عود الكبريت، وشرع في الطقوس الدخانية! وبدأ في معالجة سعال النفس الأول فلم يكن إلى هذه اللحظة "كييفًا تمامًا" وبدأ السيجارة الثانية، والثالثة، وتنبه على دهشته حينما رأى الدخان يخرج من فتحتي أنفه، تماما كما يخرج دخان سيجارة رئيسه من فتحتي الأنف، استمرأ اللعبة، بدأ الرأس يدور وتميد الأرض تحت كرسيه، كاد يصرخ إلا اِنه تمالك نفسه حينما سمع صوت زوجته تناديه من غرفتها:

– عبد الموجود... قوم هات السحور!

– دلوقتي يا وليه ما جبتيش ليه م الصبح ؟!

– ما انت شايفني محتاسة وغرقانة في عمل الكعك، يعني قُلت

بايدك!

– ومين قال لك اعملي كعك ؟!

– طـب قوم... معلهش، اخزي الشـيطان وخلّـي الليلة تعدي على خير!!

– هات الفلوس!

– سـيبالك عشـرة جنيه في كتـاب على المكتب، هـات فول وخليه يتوصى، الناس اتسـعرت، طبق فول بخمسة جنيه ما يوكلش عيل لسه مفطوم!

– عبد الموجود، ما لك سايبني آهاتي لوحدي زي الساقية الخربانة!

– ما تقوم يا راجل ... ياختي!

وطالت فـترة الصمت، فقد كان الرجل الجالس إلى مكتبه منكفئًا على وجهه بلا حراك، ويداه مازالتا قابضتين على كتابه القديم...!

وجبة عشاء ساخنة

علي مائدة الاِفطار، زوجته المصون – الله يسترها – كلمة منها، كلمــة منه، زودتهــا – حبتين – ثار الرجل بداخلــه فتمطى ورفع يده، ولم تصدق عينيها وهي ترى أصابعه تهوى علي صدغيها، يمين شمال، شمال يمين.

زوجته بنــت الأصول – الله يكرم أصلهــا – حلفت برأس جدها ماهي قاعدة له في البيت!

أم عياله، بنت الناس الطيبين لمت هدومها والعيلين وخرجت.

صفع الباب خلفها وزفر براحة ولسان حاله يقول:

– في ستين داهية!!

جلــس وحيدًا مع صمته لحظة ثم خــرج لعمله ليعود في منتصف الليل إلى شقته مهدودًا متهالكًا.

بدل ملابسه ودخل المطبخ..وخرج ليدخل الحمّام.

شعر بأن جفونه يشــد بعضها بعضًا وبرغبة عارمة في التثاؤب،

حاول مقاومة الرغبة ففشل، وفعلها!

أحس بصداع خفيف يطرق جبهته، رفع يده اليسرى وفرك مابين حاجبيه ثم طاوعته يداه فرفعهما وبشدة ضغط علي جفنيه المقفولين براحتيه.

تشابكت دوائر حمراء وسوداء أمام الجفنين المغمضين.

رفع راحتيه لحظة انقطاع التيار الكهربي فجأة، ارتبك علي غير عادته ودق صدره بعنف، تشاغل بإشعال سيجارة فلم يكن قد قضى حاجته بعد.

زحف صاروخ هواء بارد من تحت الباب ليطفأ عود الثقاب الوحيد فلم يتمكن من بغيته، زفر في عدم رضا، اصطدمت أصابعه بصنبور المياه، فتحه بعصبية، اندفاع المياه الشديد من ماسورة " الشطاف " أربكه، اقتلعه من مكانه فهب واقفًا، انزلقت قدماه علي سطح البلاط الناعم، حاول النهوض، شعر بقوة هائلة تشده إليها ودون أن يدري التصق بالبلاط، للحظة شعر بلسعة في لحمه، استسلم لخدر لذيذ بدأ يدب في أعضائه للحظة أخرى، انتبه على عودة التيار الكهربي فاعتدل وقام!

لحظة دخوله الفراش تملكته رغبة شديدة في العودة للحمّام،

فرك عينيــه وتثاءب، تذكر أنه لم يغلق صنبــور المياه فرجع إليه، كانت ماسورة « الشطاف « لا تزال ترسل ماءها في هدوء داخل قاعدة « التواليت « أحكم إغلاقها وهمّ بالخروج، أحسَّ بقشــعريرة تسري في جســده، وشعر "بطقطقة" جلد رأســه وبأن شعر رأسه كله يقف فخرج سريعاً!

* * *

لحظة إمساك الحلم إنتبه علي صوت يأتي من ناحية الحمام.

لايــدري إن كان مــواء قطة أم بكاء جرو صغــير أم "وأوأة " طفل رضيع.

لعل هذة الأصوات جميعًا دقت أذنيه في نفس اللحظة!

كان الضوء خافتًا لما نظر اِلي السقف واندهش.

كان المصباح الصغير يتأرجــح في الهواء ناثرًا ظلاله الداكنة التي كانت تروح وتجيء علي رقعة السقف البيضاء.

نهض وأضاء النور الكبير، تلاشى الصوت واستقر المصباح الصغير متدليًا في مكانه.

تمتم بآية الكرســي والمعوذتين وقــرأ الفاتحة لروح أبيه، هدأت

نفســه قليلًا، دخل فراشــه واســتلقى علي ظهره وأخذ شهيقًا وزفر براحة.. واسترخى.

* * *

لحظــة إلتقاء اليقظة بالحلم رآها تزيح طرف الغطاء عن جســده وتتمدد بجانبه، جسد أنثوي واضح المعالم بوجه تاهت ملامحه!

فتح عينيه وقد تبدد الحلم ليجد الغطاء وقد انزاح عن جسده.

لف جســده بالغطاء ودس نفســه فيه، ترامــى لأذنيه مواء قطة وبكاء الجرو الصغير وشــعر بأنفاس ســاخنة تلهب وجهه، حاول رفع الغطاء الســميك فشــعر كأن يديه مشــلولتان، اقتربت الأنفاس حارة من وجهه وشــعر بنفســه يضيق، حاول النهوض، فشــل كأن الشــلل قد تملكه تمامًا، فزع لهذا الخاطر، حاول الصياح فلم يخرج صوته.

ورآها بعينيه المفتوحتين، وشــعر بجلدها الساخن يلامس جلده وارتعشت أوصاله، لما ضحكت تبخرت سريعًا فعاد إليه الهدوء!

لما بحث عن مفتاح مصباح الغرفة سمع بأذنيه:

– لا تتعب نفسك التيار مقطوع!

تذكر الأمس وتماسك كفارس قديم ووجد المفتاح، كان التيار مقطوعًا فعلاً، استغرب وخرج إلى الشرفة.

كان الشارع يغط في نومه وظلامه، وقد هدأ تمامًا إلا من أصوات كلاب الشوارع المجاورة.

رجع لفراشه، تمدد وخيالات الأمس تداعب ذاكرته، اهتز فراشه فجأة وأحسَّ بشيء ساخن يلامس جلده ففزع وامتدت يده إلى " الكومودينو" تبحث عن كبريت، عثر عليه حاول إشعال الثقاب، جاءه الصوت واضحًا يصافح أذنيه:

- لا تشعل الكبريت ولا تخش شيئًا!

انعقد لسانه وسقط الكبريت من بين يديه، جلس فوق الفراش مبهوتًا يحيطه الظلام والصمت حتى آذان الفجر!

* * *

لثلاث ليال كاملات لم يدخل الفراش ولم يغمض له جفن، في الليلة الرابعة لما هدّه السهر والنوم المتقطع في أرجاء الشقة دخل فراشه ودس نفسه فيه.

كانت نجاة ترسل صوتها الدافيء من الراديو:

- سامحته وسألت عن أخباره...

وضاع صوتها، انكمش بجلده لما اصطدمتْ بأذنيه ضحكتها وتملكه الرعب.

شعر بيد دافئة تلامسه وتمسح جسده كله، شعر بخدر لذيذ في أطرافه سرعان ما انتشر بجسده كله وانتظمت أنفاسه.

رآها، جسد أنثوي واضح المعالم ووجه يعرف ملامحه، عانقته، أحسَّ ببروز صدرها يدخل في لحمه، أحسَّ بخفة، لمَّا عانقها انسلخت منه وقالت:

- تصبح علي خير!

انتبه ليجد النور مضاءً ووشيش المذياع يدغدغ صمت الغرفة، أغلقهما ونام.

* * *

لما عاد اِلي الشقة في منتصف الليل كان النور مضاءً..

فتح باب الشقة بريبة!

كانت زوجته في منتصف الصالة واقفة خجلى، جرى ناحيتها، ضمها إلى صدره، عانقته، راح يسألها عن أخبارها، بكت علي

كتفيــه، انتبه إلى طفلتــه في ركن الصالة ترقبهمــا في صمت، جرى إليها، رفعها في الهواء واســتقبلها بقبلة، خربشت وجهه بيديها الصغيرتين وقالت:

– انا جعت قوي يابابا!

– حبة عين بابا ستي أنا!!

أنزلهــا برفــق بينما كانت زوجته – بنــت الأصول – تتجه إلى مائدة العشاء لترفع الغطاء عن الأطباق الباردة!

الحـــذاء!؟

... توقفت عيناه، ألقي بالجريدة بعيدًا،

تسـلل إليه الهاجس صغيرًا هادئًا أول الأمر، سـرعان ما تملكه قويًا ثائرًا، ثم ما لبث أن ملك عليه كل حياته!

دُهـش كثيراً وتعجب لاكتشـافه هـذا، عمره كلـه وهو يحمل قدميه...

أو تحملـه قدماه – لايهم ذلـك الآن – دون أن يلحظ أن قدميه تتفلطح، ويوم عن يوم تزيد!

أحضر مسـطرة وجلس علي الأرض، وضـع نهايتها عند كعبه، وبدايتها، عند إبهامه.

ستة وعشرون سـنتيمترًا بالتمام، الأمر طبيعي إذن، لف جسده ببطانيته السميكة يدفن وساوسه، يبعدها عن خاطره ونام!

في هذه الأثناء أصابته وعكة صحية، أقعدته في فراشه أيامًا... أفاق بعدهـا وقد ضاق عليه حذاؤه، بالكاد اسـتطاع أن يدس قدميه فيه، عـاد آخر اليوم من عمله، وقد تورمت قدماه وأصابتها التسـلخات،

استعان " بشبشب " عدة أيام حتي برأت جروحه، وجفت بثور أصابع قدمه، عاد اِلي حذائه فإذا به يأبي بشدة احتضان قدميه!

يشتري آخر – أكبر نمرة – ولتتمتع أصابعه بالحرية والدفء!

مر أسبوع وضاق عليه حذاؤه وبدأتْ أصابعه " تنقح " وبدأتْ رائحة اللزوجة والعفن تنبعث من حذائه، ألقي بحذائه – الجديد – جانبًا واشتري آخر أكبر نمرة، ولكم أسعده أنه يحرك أصابعه داخله بيسر!

أسبوع فات، مرة أخري يضيق حذاؤه الجديد به، فأصابعه لا تنعم بالحرية ولا يستطيع تحريكها داخله.

عاد إلي بيته، خلع حذاءه، هاله ما رأى، أصابعه كتلة من اللحم المفروم والقروح نبتت فيها من جديد، وبدت أصابعه أكثر طولاً وكعبه أكبر حجمًا..

انزعج وذهب إلي الحمّام!

صبيحة اليوم التالي استيقظ من نومه علي ضجة صغيرة في البيت، سرعان ما تحولتْ اِلي مشاجرة.

استرق السمع من خلف باب حجرته الموارب، بدا صوت زوجته عاليًا وهي تلقي خاتم الزواج بوجه أمه وتقول:

-ابنك ومش عاوزاه، مش عاوزاه، مش عاوزاه، فيها حاجة دي!

نظر إلى قدميه وقد أصبحت أطول وأكبر حجمًا.

تمخط وبصق وأغلق الباب الموارب.

في عصـر هذا اليوم ذهب إلي المحـل المجاور يبتاع حذاءً جديدًا بنمـرة أكبر، دهش كثيرًا عندما أخبره البائع بأن ليس لديه المقاس المطلوب.

أول أمس لف علي جميع محال بيع الأحذية لم يجد المطلوب.

عاد اِلي بيته ليجد جواب " الرفت» من وظيفته بانتظاره

تصـادف أمس وقوع زلزال خفيف بوسـط المدينة تناقلته صحف اليـوم إلي جانب خبر عن تغيير وزاري جديد.. توقفت عيناه، ألقى بالجريدة بعيدًا.

عصفورأحمر

كانت الشمس تلملم بقاياها وتحزم أمتعتها استعدادًا للرحيل عن الرجل الجالس في شرفته، الناظر في إتجاه البحر إلى اللاشيء عندما دق جرس الهاتف:

– أحمـد، كويس اللي لقيتك، سـاعة زمن وأكون عنـدك، وأغلقت الخط!

– عايدة، ياه،أيه فكرها بيّه دلوقت!

كانـا طفلين، بكت بشـدة عندمـا نزلت لغرفة البـواب، ولطخ «بسـناج الحلة" فيونكة فستانها البيضاء، شـبّا عن الطوق قليلا، كانت تهرب من " دادتها " ليرسـم ابن البواب في كراستها عصفورًا أخضر لم ينبت ريشه بعد!

شبّا عن الطوق سـويًا نبت للعصفور الأخضر جناحان حمراوان، طارا، وحطّا بقفص الصدر!!

يوم تخرجه في كلية الفنون الجميلة، تخرجتْ في كلية الإعلام،

يومهـــا، قاد عصفور القفص الثورة، أعلن عصيانه ورفرف، حطم كل قيوده، احتضنته وقالت:

– بحبك يا أحمد... باحبك... باحبك... وتوارتْ خجلا لما اكتشفت أن عيون الطلبة تحملق فيها وتستنكر جرأتها!

في السابعة مساء كان يدق الباب ويطلب يدها، من خلف العدستين الزجاجيتين النائمتين علي أنف معقوف قال الشعر الأبيض كالثلج:

– قهوتك بردت ياباشمهندس!

في الطريق إلي باب الشقة لمح طيفها يتسمع فرحتها الموءودة

في صباح اليوم التالي كانت ضربات الفرشاة تزغرد فوق المساحات البيضاء وترسم عصفورًا بجناح مكسور وتوقيع الرسام.

برأ جنـــاح العصفور فطار يحلق في كل بقاع المعمورة يحمل اســم الفنان، ويعلن عن فرشاته.

رغـــم ذيوع الصيـــت، كان يحن العصفور الشـــمس من وقت لآخر لأحضان الكراسة، فينظر للتلفاز.

رغم الشـــهرة، لم تمح مســـاحيق التجميل لعدسات التلفاز دمعة

طفلة تبكي بشــدة يوم داعبها ابن البواب. ولطخ للفســتان فيونكة، وامتزج العصفور بألوان الفرشاة.

ذاب تمامًا فوق المســاحات البيضاء، تلاشي ليبعث فجأة عصفور أحمر، ترفرف أجنحته الحمراء عبر الهاتف!

رحـيـــل

لما تكرر دخوله حارتنا، اســترعي انتباهــي أن كلاب الحارة لم تمزقــه – علي غير عادتها – وأدهشــني أن كل مــا فعلته أن التفت حوله، تشممته، ثم هزت ذيولها فهزَّ ذيله في ثبات وزام، فزامت، وأفسحت له الطريق..!

وصــل الغريب إلى آخر الشــارع الضيق، أمــام البيت قبل الأخير توقف، تشممه، رفع ساقه وبال فوق الجدار..!

نبح جرو صغير ناحيته فلم يعره الغريب انتباهًا..!

وقتمــا كان الغريب يرحل كان بوله يبرقش طوبة في الجدار قبل الأخير، في تحدٍ وصلفْ!

ليلتها لم أنم من نباح الجرو الصغير..!

* * *

قبل الغروب جلســتُ في شــرفتي كالعادة استمتع بشاي الأصيل، أنفث دخان ســيجارتي في الهواء، لما دخل الغريب الحارة مزهوًا في

خُيلاء، توارت كل كلاب الحارة فلم أُبصر منها – صريخ بن يومين–.

لما وصل الغريب للجدار الأخير تشممه، فجأة ظهر الجرو الصغير ونبح ناحيته فلم يعرْهُ انتباهًا ورفع ساقه، وقبل أن يبول كان الجرو الصغير يقضم ذيل الغريب..!

وانشقت الأرض عن كلاب الحارة وحمي الوطيس..!

* * *

عند الغــروب، وقتما كان الغريب يرحــل بأذن واحدة ونصف ذيل وجزع مكســور عن شــارعنا الطويل، كان دمه يبرقش كل طوب الجُدر.. وعلي الجانبين!

سلمى تموت مرتين

أشـار الطبيب لمساعديه بالصمت، تنفس الصعداء وهو يقترب من الشفتين ويزيح طوق السماعة عن رقبته، غمغم:

– بدأ يفيق.

تناثـرت الكلمات في أرجـاء الغرفة بطيئة واهنـة ثم تدفقت في حدة:

– كنـت وسـلمى نجلس بقارعـة الطريق الطويل الممتـد بين حقول الـذرة، كانت عيناها خضراوين وكانت عيدان الذرة طويلة خضراء، كنا صغيرين وكانت كيزان الذرة تجلس بين الأوراق في ثبات وسكينة تتهدل " شُـرَّاباتها " التي بدأت تتشـح باللون الكسـتنائي، تمامًا بلون شعر سلمى.

كانت أمي – رحمها الله – تتعجب دومًا من هذا التزاوج الغريب بين لون شعر سلمى ولون عينيها، كانت سلمى تقول:

– تعرف الكوز استوى إزاي بدون ما تحسس عليه!

أطرق صامتًا فتسترسل:

– لما شوشته تسود يبقى استوى!

وأسمع كلامهـا، تجمع جذور الفول، وعلي قارعة الطريق تكون في انتظاري لتسألني:

– معاك كبريت ؟!

ألقي بكيزان الذرة علي الأرض.. ننتظر عابر طريق نسأله كبريتًا:

– مش هناكل ذرة النهاردة.

تحدجـني بطرف عينيها، فيهما شـيء لا أعرفـه، تتمدد علي ظهرها بعرض الطريق، تنقلب علي بطنها وترسم خطوطًا بسبابتها بوجه الأرض، تنقلب علي ظهرها، تغمض عينيها وتقول:

– هناكل ذرة النهاردة!

تضحـك، كانت ضحكتها تحمل جرسًـا غريبًا، ما أن تنتهي من ضحكتهـا... ألمح رجـلاً يُقبل نحونا، أحثهـا أن تعتدل فتضحك، تستوقفه بقدمها:

– معاك كبريت ياعم!

يبتسم لطراوتها وشـقاوتها، يخرج علبة كبريت كاملة ويلقيها بجانبها:

- تأمري يا سلمى!!

اندهش لجرأتها وشقاوتها.

- بالهنا والشفا.

تقولها وتطوّح بآخر « قولاحة " بعيداً.

* * *

علي قارعة الطريق، في عز الظهر الأحمر تأخذني سلمى من تحت شجرة التوت العتيقة لنجلس سويًا، أنظر اِليها، بعينيها وهج غامض يشدك إليه دون أن تدري.. تبادرني:

- مش هنخبز النهاردة!

وبدون تفكير أقوم لأحضر لها العجين والمطرحة.

تلوي ساقيها تحتها، تمسك المطرحة – لوح من الصفيح الصدأ – تضع فوقها بعضًا من تراب الطريق الناعم، آخذ قطعة من الطين الطري، أقرص عليها، ترح الطين فيستدير ويرق، ترح بكلتا يديها، يستدير ويرق، تسطحه علي وجه الأرض... وأقرص عليها وتسطح آخر رغيف، تلقي المطرحة بجانبها، تمسح العرق النازف بكم جلبابها تنظر إليّ وتضحك:

- عطشانه قوي!

أقــوم لأحضر «القلــة» من حضــن التوتة العجــوز، تأخذ بيدي وتنهض:

- تعال نشرب م الساقية المهجورة، ماؤها زلال!

قالت لي:

- علشان خاطري متقلش لحد!

* * *

ولمــا كانت كل العيال خبّاصــين وفتّانين والفولة لا تُبل بأفواههم قلت لأمي وأنا أدس نفسي في أحضانها أحاول اختراق لحمها لأختبأ فيــه عن كل مــا جرى من ســلمى وما رأيت مع ســلمى، وعن كيف خلعت ملابسها وأمرتني أن أفعل مثلها، نظرت إليها مبهوتًا، نفس الوهــج الغامض الذي لا يقاوم، وفعلت، ضمتني إليها وارتعشــت، ارتعشــنا ســويًا في نشــوة.. ونزلنا البئر، ورأيت بعيــني أكثر من ســلمى، وكل سلمى أجمل من ســلمى تحمل نفس الوهج الغامض في عينيها.. وشــربنا جميعًا من ماء البئــر، كان زلالًا، وتعاهدنا علي شــيء ما.. وتضاحكنا، وضحكنا جميعًا، وقالت ســلمى، وسمعت، وأصغين جميعًا، وانصرف الجمع، خرجت وســلمى مبتلين وتركنا

نفسينا للشمس، رغم حرارة الجو وصهد الأرض كانت سلمى تخط الأرض بأصبعها!

اعتدلت، لوت ساقيها تحتها، رسمت خطًا، خربشت وجه الأرض بأظافرها وقالت:

- حاول ألاّ تفعل، أرجوك!

لم أفهم، دمعت عيناها.. فعدنا إلي الشجرة دون كلام.

في اليوم التالي افتقدت سلمى، في اليوم الذي يليه ذهبتُ إلى البئر وحيدًا لأجد جثثًا لكلاب وقطط تطفو علي سطح المياه العطنة!

في اليوم الثالث سألت عن سلمى وجدتها قد ماتت، بكيت بشدة، نهرتني أمي ومنعتني من مغادرة البيت.. ونسيت سلمى ككل العيال!

* * *

بامتداد عشرين عامًا كاملة حصلت فيها على الإعدادية بتفوق والثانوية بتفوق أيضًا وتخرجت في كلية الآداب بأمتياز وذهبت إلى الخارج، عدت بعدها أحمل الدكتوراة، لم أذكر سلمى إلا في رحلتي الأخيرة لأمريكا.

كأستاذ للأدب الانجليزي والمقارن عندما رأيتها، – سالومي – فتاة رقيقة تلبس الجينز، تجاوزت العشرين من عمرها بقليل، نحيلة، كستنائية الشعر، ما إن نظرت إليها حتى جذبني هذا الوهج الغامض في عينيها الخضراوين.

بسرعة تعارفنا، يهودية، اِنجليزية الجنسية، إيرلندية الأصل، تحادثنا في أمور شتى، كأني أعرفها من زمن بعيد، رغم أنها لاتعرف حرفًا واحدًا من العربية، حدثتني عن جدودي الفراعنة، اندهشت وخجلت من ثقافتي المتواضعة بالنسبة لها، وعن الذين هبطوا اِلي الأرض، ولم أرد، وعن حسن فتحي وقرية القرنة ويحي حقي وأم العواجز وعن نجيب محفوظ وسيدنا الحسين.. ذهلت.

حدثتني عن تناسخ الأرواح وبوذا وكونفوشيوس وعن الاِتصال عن بعد بين الأشخاص.. وحدثتها عن خطبتي السابقة وفشلي في الارتباط أكثر من مرة، وعن القطط التي كانت تحملني في نومي لتريني عوالم غريبة، وحدثتها عن سلمى.. أخيرًا، وطلبت منها الزواج!

تغير لونها وارتعشت، ألححت عليها دمعت عيناها ولم تنطق.

علي سلم الطائرة فاجأتني بقبولها الارتباط بي، تدللت وقالت:

– سيكون عرسنا تحت أقدام « أبوالهول «!

ناولتــني جواز ســفرها وتذكرة الطائــرة، احتضنتها في فرحة، شعرت بعظامها تكاد تتكسر تحت جلدها الرقيق، طبعت قبلة علي خدها فانسحبت من بين يديّ في خفة.

تحت أقدام " أبوالهول" كانت زائغة النظرات، قالت:

– لنسترح قليلا قبل الذهاب إلى الفندق.

وافقتها، رغم ســخونة الشــمس، لوت ساقيها تحتها، رسمت خطوطًا متشابكة خربشت الأرض بأظافرها، نظرتْ إليَّ وقالت:

– حاول ألا تفعل، أرجوك!

– يا الله!

سالومي التي لم تعرف حرفًا من العربية تنطق الحاء حاءً والعين عينًا!

تردد الصدى علي مسامعي، حاول ألا تفعل أرجوك، كأني سمعت هــذه العبارة من قبل، نظرت إليها نفس الوهج الغامض الذي رأيته من عشرين عامًا.

احتضنت وجهها براحتي، نظرتُ في عينيها طويلًا وذهلتُ،

كانت سالومي قد فارقت الحياة!!

المحتوي

م		الصفحة
١	الإهـداء	٣
٢	تقديـم	٥
٣	ولـــدي	٩
٤	وثالثهم البـــوتـاس	١٤
٥	ورق التـــوت	٢٠
٦	وظيـــفـة	٢٤
٧	جني القـطـن	٢٦
٨	العـــودة	٢٩
٩	تهـــاني	٣٢
١٠	فكـــرة	٣٥
١١	النـوافـذ المغلـقـة	٣٩
١٢	حزمة قش	٤٣
١٣	مـــلاك أســـود	٤٨
١٤	لحظة خسـوف القمر	٥٠
١٥	الجنـــرال	٥٤
١٦	يعني لازم تحلف	٥٨
١٧	العشرة جنيه	٦٢
١٨	وجبة عشاء ساخنة	٦٦

١٩	الحـــذاء	٧٣
٢٠	عصفور أحمـر	٧٦
٢١	رحـــيـل	٧٩
٢٢	سلمى تموت مرتين	٨١

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع